

لماذا التقوى



صنوا سنكرية

تأليف
فهد بن محمد بن محمد الغفيلي

حقوق الطبع غير محفوظة

فرحم الله من نشره أو ترجمه أو طبعه بأي طريقة كانت
بلا تغيير أو تبديل، ليوزعه مجاناً أو يبيعه

للتوزيع الخيري بسعر رمزي

+ ٩٦٦٥٠٥١٤٠٠٣٦

③ فهد محمد الغفيلي، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغفيلي، فهد محمد

لماذا التقوى. / فهد محمد الغفيلي. - الرياض، ١٤٣٥ هـ

ص.؛ سم

ردمك: ٧-٤٦٣٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- التقوى ٢- الإيمان (الإسلام) أ. العنوان

١٤٣٥/٢٩٤٨

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٩٤٨

ردمك: ٧-٤٦٣٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَلِّمًا

عندما تتدبر القرآن الكريم تجد أن الله يحثنا على التقوى، ويفرض علينا الأحكام الشرعية المهمة لتكون التقوى هي الغاية القصوى، فعلى سبيل المثال قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣] فتم تعليل الحكمة الكبرى من الصيام بالوصول إلى التقوى، فينادي الرحمان أهل الإيمان في شهر رمضان ليصوموه، ليكون سبباً من أسباب زيادة إيمانهم وحصول تقواهم، بعد أن تمثلوا فعل أوامره وترك نواهيه، فكان هذا الشهر بمثابة التربية الإيمانية للعبد ليتزود فيه من زاد التقوى، فهو خير زاد وخير لباس، قال تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] ليكون له الغذاء الروحي، واللباس المعنوي في مسيره إلى الله لسنته كلها، مستثمراً مواسم الخيرات، وأوقات الطاعات، وأعمال الصالحات؛ لتزود لا تنقص.

لماذا التقوى؟!

ويكفي أن تعلم كمسلم أن «فضيلة التقوى من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد والتوفيق، والمهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه علّق الهدى بوصف، والحكم إذا علّق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة، وكلما قويت العلة قوي المعلول»^(١).

ولا أخفيك سرًّا - أيها القارئ الكريم والقارئة الكريمة - أن هذا الكُتيب الصغير كان من ثمرات آية الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فانبثق هذا السؤال: لماذا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نصل للتقوى في حياتنا ويأمرنا بالتقوى في عبادتنا؟ هل من أجله أم من أجلنا؟

ولا شك أن الله جَلَّ جَلَالُهُ هو أهل التقوى، لنعبده وحده لا شريك له، ونتقي عقابه وعذابه، ونقوم بمحبته وطاعته، ليغفر لنا ذنوبنا، ويتجاوز عن خطايانا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فالله أخبر بنفسه أنه أهل للتقوى، لكن نحن كعبيد لربنا لماذا نتقيه؟ ويُحفظنا الله بآياته لذلك؟

(١) ينظر: تفسير الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (ص ٢٩).

هذا السؤال جعلني أتحمس وأتدبر كلمة التقوى وما تصرف منها عند قراءتي للقرآن الكريم، وأتأمل معانيها وفوائدها، وأتصور أبعادها وعوائدها، لأكتب بعد العيد ما تبلور في عقلي، وتخمر في فكري، واستشعره قلبي، ووقفني إليه قبل كل شيء ربي، لتكون إجابته معالم في دربي، وإشارات عامة أستفيد ويستفيد منها غيري.

وستكون على عدة مباحث:

الأول: تعريف التقوى.

الثاني: لماذا التقوى (وسيتخلل هذا المبحث صفات المتقين بالقرآن)

الثالث: نموذجان لأثر التقوى في المحن والشدائد.

وبهذا أكون أنهيت هذا الكتيب الصغير حول التقوى، سائلاً المولى الإخلاص والتقوى، والسداد والهدى، إنه هو السميع العليم.

فهد بن محمد بن محمد الفيلي

المملكة العربية السعودية

١٤٣٤/١٠هـ

لماذا التقوى؟!



المبحث الأول

تعريف التقوى

لغة:

الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. يقال: وقيت الشيء وقايةً ووقاءً. قال تعالى: ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ١١] ﴿وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه. ثم يسمّى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه^(١).

اصطلاحاً:

التقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: «الحلال بين، والحرام بين، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه»^(٢).

(١) الراغب الأصفهاني (مادة وق ي).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (رقم ٥٢) ومسلم، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (رقم ١٥٩٩) وقد ذكره الأصفهاني بالمعنى، ولفظه: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ».

لماذا التقوى؟!

وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨] ويقال: اتقى فلان بكذا؛ إذا جعله وقايةً لنفسه. وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] تنبيه على شدة ما ينالهم، وأن أجدر شيء يتقون به من العذاب يوم القيامة هو وجوههم، فصار ذلك كقوله: ﴿وَتَعْنَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]^(١).

وقد سئل العالم العامل البصري الزاهد طلق بن حبيب العنزى رَحِمَهُ اللهُ عن صفة التقوى، فأجاب بإجابة عليها من نور الله ما لا يخفى: «الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، رَجَاءً ثَوَابِ اللَّهِ، وَتَرْكُ مَعَاصِي اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ»^(٢).

ما معنى هذا الكلام؟!

تفهم عمق هذا التعريف من تعليق الذهبي عليه حيث قال: «أَبَدَعَ وَأَوْجَزَ، فَلَا تَقْوَى إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا عَمَلٌ إِلَّا بِتَرَوٍّ مِنَ الْعِلْمِ وَالِاتِّبَاعِ، وَلَا يَنْفَعُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، لَا لِيُقَالَ: فَلَانَ تَارِكٌ لِلْمَعَاصِي بِنُورِ الْفِقْهِ. إِذِ الْمَعَاصِي يَفْتَقِرُ

(١) الراغب الأصفهاني (ص ٨٨١ مادة وق ي بتصرف).

(٢) الزهد لابن المبارك (رقم ١٣٤٣) الإيمان لابن أبي شيبة (١/٩٨ رقم ٩٥).

اجْتَنَابُهَا إِلَى مَعْرِفَتِهَا، وَيَكُونُ التَّوَكُّلُ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ لَا لِيُمدَّحَ بِتَرْكِهَا، فَمَنْ دَاوَمَ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ فَقَدْ فَازَ»^(١)



(١) سير أعلام النبلاء (٨ / ١٧٥).

فائدة: من يريد الاستزادة حول التقوى بين المعنى لغة واصطلاحًا، والآيات والأحاديث فيها، صراحة أو معنى، ونحو ذلك من فوائد، فليرجع لكتاب قيم بل لموسوعة قيمة وهي: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**. لمجموعة من المؤلفين / دار الوسيلة - السعودية / جدة .

لماذا التقوى؟!

المبحث الثاني

لماذا التقوى؟!

يحثنا الله ويأمرنا بالتقوى، ويحفزنا بعباداته للوصول إليها، وبشأئره للمتقين لا تخفى، فلماذا يريدنا الله أن نصل للتقوى ونحصل عليها!

وجدت الأسباب عند تأمل الآيات تنقسم إلى قسمين:

* أسباب سماوية

* وهي متعلقة بالله، وحياة العبد الآخروية.

* أسباب أرضية

* متعلقة بالعبد وحياته الدنيوية.

والمسلم الحقيقي لا يفصل بين هذه الأسباب والأهداف في حياته، لأنه باختصار سيعيش في كلتي الدارين، لذا فالعقل الحكيم لا يهمل أسباب أحد الدارين على حساب الأخرى، فالدنيا مزرعة الآخرة التي سيحصد ثماره الحقيقية فيها.

والتقوى على سبيل المثال تربط بين الدارين في أسبابها، مع العلم أن سبب لزومنا للتقوى قبل كل شيء هو استجابة لأمر الله تعالى في عدة مواضع من آياته، فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

يقول الطبري: «يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرِسُولِهِ، اتَّقُوا اللَّهَ، يَقُولُ: خَافُوا اللَّهَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَاتَّقُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيَمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَالْإِنْتِهَاءُ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ»^(١).

فمع الأسباب بشكل عام:

أولاً: محبة الله للمتقين

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

يعني أن الله يريد أن يقربك لجنّة رضاه، وإذا أحبك الله أحبك أهل السماء وقبلك أهل الأرض.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ. فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ:

(١) تفسير الطبري (٥/٤٩).

لماذا التقوى؟!

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١)
 فيتقبله مَنْ يعرفه ويحبه، ويكون الذكر الحسن له بدربه.

لذا وضع الله لك في محكم آياته طرقًا كثيرة لتكسب محبته، رغم أنه
جَلَّ جَلَالُهُ غَنِيٌّ عَنكَ، لكن لتنال أعلى شرف، وأعلى هدف، وأسمى غاية؛ محبة
 الله لك، فيكون الصلاح والفلاح حليفك بالدارين.

فإذا كنت تسعد إذا علمت أن الملك يُحبك، لأن هذا شرف كبير لك،
 واصطفاء عظيم من بين الخلائق، لا سيما ما لآثار محبته من النعيم عليك،
 ما بين تحقيق للأمني وتسهيل لما تُعاني، وما إلى ذلك.

كل هذا إذا كان من أحبك مخلوقًا ملك، لا يخرج عن حدوده البشرية في
 قدرته، ومع هذا كانت لك كل هذه الميزات والتسهيلات وسعدت بها، فكيف
 أيها العبد إذا أحبك الخالق ملك الملوك! الذي أمره بين كاف ونون (كُنْ
 فيكون) لا حدود لفضله وقدرته، ولا قيود لأمره ورحمته، ولا رادًا لمشيئته
 وحكمته، فاتق الله ليحبك الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٦).

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (رقم ٣٢٠٩) ومسلم في
 كتاب البر، باب: إذا أحب الله عبدًا حبه إلى عباده (رقم ٢٦٣٧).



ثانياً : تكفير السيئات ، ومضاعفة الرحمة والهداية والمغفرة

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ ﴿٥﴾ [الطلاق: ٥]
 وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ
 وَيَجْعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨]

طموح أي مؤمن ومؤمنة هو مغفرة ذنوبه، وتكفير سيئاته، ليرضى ربه،
 وينال جناته.

والمسلم لا بد له من خطايا وسيئات، لذلك تجد أن الصادقين يُكثرون
 من التوبة والاستغفار، حتى الأنبياء المعصومون كانوا كثيراً ما يستغفرون
 ربهم، فتجد بنص كتاب الله استفتاحهم دعواتهم بالاستغفار.

فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾
 [نوح: ٢٨]

وهذا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ
 مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٣٥﴾ [ص: ٣٥]

وهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ [الأعراف: ١٥١]

بل إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يستغفر الله ويتوب إليه باليوم مائة مرة.

فغيرهم من باب أولى بلزوم الاستغفار، لتكفر عنهم سيئاتهم. ومن فضل الله وكرمه أن جعل تقواه سبباً من أسباب تكفير السيئات، بل ويُعْظَمُ له الثواب بالعمل اليسير، فكيف نُفْرَطُ في هذا السبب العظيم الذي هو طريق المغفرة والرضوان والدخول للجنان.

ومن أسباب تكفير السيئات التقوى والإيمان، قال المنان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥]

والله يغفر لمن اتقاه ويرحمه، قال الرحمان: ﴿وَإِنْ تُصِلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وقال أيضاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٦٩].

وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فالتقوى باب عظيم للمغفرة والرحمة، وإذا ولج الإنسان هذه البوابة فقد دخل جنة الدارين من أوسع أبوابها! وكيف يتعس ويشقى من عباد الله مَنْ كان تحت رعاية رحمة الله!

لماذا التقوى؟!

واعلم أن جزاء التقوى والإيمان في جوارح وقلب الإنسان ثوابٌ جليل
خير من الدنيا وما فيها، وأجر أعظم مما يناله فاعلها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ
ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]. وقال:
﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وفوق كل هذا يعطيك الله ضعفين من الأجر، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

كيف تكون من المتقين وأنت لاتعلم ما تتقيه؟!

قال ابن رجب : «وأصلُ التَّقْوَى :
أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ مَا يُتَّقَى ثُمَّ يَتَّقِي، قَالَ عَوْنُ
بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: تَمَامُ التَّقْوَى أَنْ تَبْتَغِيَ عِلْمَ
مَا لَمْ يُعْلَمَ مِنْهَا إِلَى مَا عِلِمَ مِنْهَا.

وَذَكَرَ مَعْرُوفُ الْكَرْخِيِّ عَنْ بَكْرِ
بْنِ حُنَيْسٍ، قَالَ: كَيْفَ يَكُونُ مُتَّقِيًّا مَنْ
لَا يَدْرِي مَا يَتَّقِي؟ ثُمَّ قَالَ مَعْرُوفٌ: إِذَا
كُنْتَ لَا تُحْسِنُ تَتَّقِي أَكَلْتَ الرَّبَا، وَإِذَا
كُنْتَ لَا تُحْسِنُ تَتَّقِي لَهَيْتَكَ امْرَأَةً فَلَمْ
تَغْضَبْ بَصْرَكَ...». (جامع العلوم

والحكم، ٤٠٢)

ثالثاً: جزاؤهم الجنة

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[الحجر: ٤٥-٤٦]

إذا أحبك الله فلا بد أن يجعلك تسلك طريق مرضاته لتدخل بسلام فسيح جناته، وما فيها مما لا عين رأت، وأذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهي تفوق الخيال، وحدود العقل.

كلنا يسعد برغد العيش الدنيوي المؤقت رغم ما فيه من منغصات الحياة، بين مكابدة وابتلاءات وأقدار، ليس للعبء فيها حول وقدرة وخيار، فكيف برغد جنة الخلد في دار القرار التي ليس فيها شيء من كل هذا!

ومعلوم أن المؤمن الصادق يتعب بالدنيا، ويتحمل الأذى، ويقاوم نفسه، ويحبس شهواته، ويعمل الواجبات، ويترك المنهيات، وإذا أذنب تاب ونزع واستغفر.

لماذا؟ لكي ينال رضى ربه ويسلم من عذابه، ليدخل النعيم ويتعد عن الجحيم، ويحصد ثمار تعبته بالدنيا، رحمة ربه وجنته؛ لتكون هي الجزاء الأوفى، والدواء الأشفى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَدَّهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور: ١٧-٢٠]

وكيف لا يكون هذا جزاؤهم وقد وقاهم الله عقابه، وجعلهم يوم القيامة فوق الناس بأعلى الدرجات، قال تعالى: ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: ١٩٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

فحري بالعاقل أن يحرص على تقوى الله، ويسعى لأن تكون زاده ولباسه ويسعى لأسبابها.

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلّب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً
وقد سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ:

«تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(١).

وليست هذه المرة الأولى التي تأتي التقوى مقرونةً بحسن الخلق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ؛ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ»^(٢).

فالتقوى متلازمة مع الخلق الحسن؛ لأن التقوى محلها القلب، فترسل إشاراتٍ وتأثيراتها موزعة بين العقل والنفس والجوارح، فتظهر صبغتها بالأقوال والأفعال والسلوكيات والأعمال، لتصبح التقوى بالإنسان بمثابة منبع الخير الذي يمد غيره ويسري عبر أنهار العروق، والشمس التي تنشر أشعتها بأنحاء الجسد ليبقى على وجه المتقي أثر الشروق.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر، باب: ما جاء في حسن الخلق (رقم ٢٠٠٤) وقال: صحيح غريب. وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ذكر الذنوب (رقم ٤٢٤٦) وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم (رقم ٢٥٦٤).

رابعاً: حصول المتقي على الفلاح

لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]

كل إنسان يريد الفوز بمبتغاه، والابتعاد عما يخشاه، فتجده يخالف هواه ليُحقق مُناه، وينجو مما يخافه.

وهكذا المتقي الذي تجنب هواه طاعة للإله واجتناباً لما نهاه، فجزاه ربه الفلاح بدره «والفلاح هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب وحصوله للعبد متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاتته الأرباح»^(١)

فالمتقي نفسه كنفوسنا، تجذبه مغناطيس الشهوات وزخارف الدنيا والملهيات، لكنه يقن حديث: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢) فأمن وعمل بحقيقة ﴿مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] فقدَّم الباقي الدائم على المؤقت الزائل ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠، ٢٠٣) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (رقم ٢٨٢٢).

لماذا التقوى؟!

ومن كان هذا حاله كان عيشه عيش السعداء، لأن قلبه معلق بالسماء،
فالمتقي حقاً هو السعيد،

قال الحُطَيْبَةُ العَبَسِي:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ دُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلتَّقَى مَزِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

خامساً: معية الله للمتقين

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (النحل: ١٢٨).

حينما يعلم الإنسان بالدنيا أن معه من الخلق من يقوم مقام الدرع فيحميه،
والعضد فيقويه، والسند فيعتمد عليه، تجده بسبب الثقة بنفسه والعُصبة التي
معه لا يخشى من يريد عراكه من البشر، أو ردّ من أخذ حقه، أو الإقدام على
مَنْ اعتدى عليه، أو البِدَار لتبني فكرة أو رأي أو اجتهاد ما ونحوه؛ كل هذا بلا
حسبان، سوى نوائب الدهر التي لا يستطيع مجاراتها أو ردّها.

لكن حينما يعلم أن الخالق هو الذي معه لا أحد من الخلق، معه في
معية خاصة، في أفعاله أو أقواله، خطواته أو سلوكياته، تنقلب موازين القوة

والتفكير عنده لأنه قويٌّ بالله، فالله معه بالهداية والمعونة والتأييد والكفاية والنصرة والتوفيق والرعاية.

والمؤمن التقي يعي جيداً معنى معية الله الخاصة للمتقين، قال تعالى:
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٣٦) ليكون اليقين في الإقدام والثقة بالله العزيز العلام.

واعلم أنك إذا حفظت الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه حفظك
«أَحْفَظُ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهَ تَحِذُهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفَ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ
فِي الشَّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ
بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ
اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ
الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨/٥) رقم (٢٨٠٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٨٠٦).

سادساً : تفريج هموم وكروب المتقين ورزقهم

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

حينما يعمل العبد ما أمره الله، ويجتنب ما نهاه الله، يكون في رعاية الله تحت مظلة تقوى الله، والله **جَلَّ جَلَالُهُ** يحب المتقي، وإذا أحب عبداً ابتلاه ليكفر ذنبه أو يرفع درجته «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»^(١) أي: الأقرب إليه في التقوى فالأقرب.

يعلم علام الغيوب أن عبده لا بد أن يمر بحياته الدنيوية بما يُكدر صفوه، ما بين ابتلاءات وأزمات، بكل الأشكال والمستويات، مادام يمشي على الأرض، فيتروح بين المرح والترح بالطول والعرض، فيعيش متوازناً بين الأفراح والجراح، لكي لا يختل عنده ميزان الشكر والصبر بكل عدل.

في هذه الحقيقة المشاهدة للناس وما يمرون فيها من ضائقات، يكون المتقي قد عرف بالرخاء رب الناس، فيعرفه الله بالشدة أكثر الناس، فيزيل عنه همومه

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥/١٠ رقم ٢٧٠٧٩) وهو حديث صحيح لغيره، كما ذكره محققه الأرنبوط وآخرون.

وغمومه، ويُنجيه من كربه في دروبه، ويرزقه ربه من حيث لا يدري ويُؤمل .
والرزق أشمل وأعم من مجرد مال أو زاد، فيفرج الله عنك أمرك، ويكفيك
من حيث لا تحسب، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾
أي: «ومن يتق الله في أموره ويُفوضها إليه فهو كافي»^(١).

وروى ابن المبارك قال: قال داود لابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا بني، إنما
تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه،
ولحسن رضاه فيما أتاه، ولحسن زهده فيما فاتته^(٢).

لذا على العبد المؤمن أن يتقي الله ويصبر، يكفيه الله هم دنياه والخليقة،
ويوسع له ما يواجهه من ضيقة.

قال سالم بن أبي الجعد: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾
فِي رَجُلٍ مِنْ أَشْجَعٍ أَصَابَهُ جَهْدٌ وَبَلَاءٌ، وَكَانَ الْعَدُوُّ أَسْرُوا ابْنَهُ، فَاتَى النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ وَاصْبِرْ» فَرَجَعَ ابْنٌ لَهُ كَانَ أَسِيرًا قَدْ فَكَّهُ اللَّهُ،
فَأَتَاهُمْ وَقَدْ أَصَابَ أَعْنَزًا، فَجَاءَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ، فَقَالَ

(١) تفسير الطبري (٤٦/٢٣).

(٢) الدر المنثور (١/١٣٣).

لماذا التقوى؟!

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ لَكَ»^(١).

لذلك يحثنا الله على تقواه من أجلنا، فنحن الفقراء إليه وهو الغني عنا، فيضع لنا أسباب التقوى لنبلغها، ويقف معنا في شدائد حياتنا، ويقضي لنا حاجتنا. فما أرحمك وألطفك ربنا! وما أعظمك وأحلمك علينا!

سابعاً : تيسير أمور المتقين

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

لا بد للعبد أن تتعسر أموره وتتعدد أحياناً، فلا يُيسر أمرها ويحل عقدها إلا رب العالمين، فاطمئن؛ لأن صعبك عنده سهل، وعسيرك عنده يسير، وطريقك المليء بالشوك سيكون زهراً، يكفي أن تعلم أن الله تعالى قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَقَ﴾ [٥] ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [٦] ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [٧].

فقوله: ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ يعني: فسنتيئه للخلة اليسرى، وهي العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا، ليوجب له به في الآخرة الجنة^(٢).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٩٥ رقم ١٨٩١٠).

(٢) تفسير الطبري (٤٧١/ ٢٤).

فأبشر بالدنيا والآخرة، وتأكد أن اللطيف سيذيب جبال الجليد من
أمورك بحرارة إيمانك في شعورك، حينما اتقيته في أعمالك، سواء بأقوالك
أو أفعالك.

من صفات المتقين

ما جاء في سورة البقرة مع جزائهم:

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ
 فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
 ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
 أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
 أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ثامناً: الولاية للمتقين والبشرى لهم بالدنيا والآخرة

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
 الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِكَالِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]

حينما تكون مؤمناً تقيّاً تكون لله وليّاً، وإذا كنت وليّاً من أولياء الله فلا خوفَ عليك من عقاب الله و عرصات وأهوال يوم القيامة؛ لأنك كنت تعمل ما أمرك الله به، وتترك ما نهاك الله عنه، لذا فأنت مطالب بإحسان الظن بالله بعد أن فعلت أسباب رجاء عفوهِ ومغفرته، ولا تحزن على مَنْ تركت خلفك في دنياك وما فاتك منها، فأمثالك من المؤمنين بقضاء الله وقدره بمثل هذا لا يحزنون لدرجة اليأس والقنوط.

فما أعظمها من نعمة لا تُقدَّر بثمن حينما يؤمنك الله من خوفك، ويُجلي عنك حُزنك، لتنال السعادة والطمأنينة بعينها ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُنْفِقِينَ (١٩)﴾ [البغية: ١٩].

ليس هذا فقط، بل يُبشرك بشائر الفرح المجيد، ففي حياتك الدنيوية لك الذكر الحسن، والرؤيا الصالحة، والتوفيق من الله لك بأمر كثيرة، أجلها أن وفقك الله لطاعته. وكذلك في حياتك الآخروية، فمنذ قبض

لماذا التقوى؟!

روحك وأنت ترى البشائر من ملائكة الرحمة لك، مرورًا بِنجاتك من عذاب القبر، وعقاب الله، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويكفي أن تعلم أن الله العظيم يعاهدك بذلك لتفوز الفوز العظيم، والله سبحانه لا يبدل وعده ولا يُخلفه.

من صفات المتقين

ما جاء في سورة آل عمران مع جزائهم :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنُظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَنجسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا
عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ
مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

تاسعاً: تحقق شكر الله

لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

المؤمن من أحرار الخلق يتميز غالباً بحسن الخلق، يشكر من بذل إليه إحساناً أو معروفًا، فكيف إذا كان المتفضل عليه هو الخالق الذي نعمه لا تحصى، فسبحانه بالشكر الجزيل من باب أولى!

وليس هناك أحق بالشكر من الخالق والخلق من الوالدين، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

واعلم أن إبليس من أهدافه عليك كعبد من عبيد الله ألا تشكره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

أما الله سبحانه وتعالى فرضاه في شكره ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] واتباع أمره بشكره ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] فقد أثنى الله على الشاكرين، وعلى رأس هؤلاء نوح عليه السلام حينما وصفه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وهذه رسالة للخلق ليقتدوا

به، فالشكر غاية الخالق من خلقه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

واعلم - رعاك الله - أن أعظم شكر الله الشاكر الشكور الإيمان به، والانقياد له، وتقواه في اتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] ليزيد الله من فضله عليك، ويحفظ ويديم لك نعمتك، ويجازيك بالجزاء الحسن بالدارين.

كيف نغرس التقوى في قلوبنا؟!

- ١- تعرف العبد إلى ربه .
- ٢- عبادة الله - تبارك وتعالى - بصدق .
- ٣- التفكير بخلق الله تعالى .
- ٤- التفقه في النصوص المتحدثة عن
القبر وعذابه، والآخرة وأهوالها .
- ٥- الإكثار من ذكر الله تعالى .

(ينظر تفصيلها مع شواهدا في كتاب «التقوى»،

أ.د عمر الأشقر، ٣٥-٥١)

عاشراً: وسيلة للعلم النافع وزيادته، والتمييز بين الحق والباطل، والاتعاظ بالقرآن وآياته والانتفاع بها

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

ويقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]

ويقول: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالمسلم يحتاج لكشف الحقائق ما يعينه من العلم النافع الذي يقوده لاكتشافها، فلا بد من بصيرة نافذة تبدد ظلمات الباطل والشبهات، سيما في زمن الفتن والشهوات، ليهتدي صاحب التقوى لسبيل الرشاد، وطريق السداد.

فلا بد أن يتزود طالب العلم من التقوى لتعينه في طلبه للعلم، بل ويتزود منها العامي لينتفع بآيات الله في هذا الكون، ويتعظ بالقرآن وآياته، وينتفع بها في حياته.

قال العلامة ابن عثيمين عن التقوى: «أن المتصفين بها هم المنتفعون

بالكتب الإلهية هداية وموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]»^(١).

(١) فوائد التقوى (ص ١٤).

الحادي عشر: منع الاعتداء، ورد كيد الأعداء

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيَّ﴾ [هود: ٧٨]

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

لا بد للمؤمن الصادق صاحب الرسالة من أعداء يكيدون به عن يمينه وشماله، ولنا في سيرة الأنبياء وأمثالهم خير مثال، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢] ما بين غوائل واحتيال، وتشكيك وجدال، وإيذاء بالأفعال أو الأقوال، وهكذا طريق أمثال هؤلاء مليء بالابتلاءات والاختبارات، ومن سار على نهجهم.

لذا يحتاج العبد العون من الله، لتحمل التكاليف وتبعاتها، وحفظه من شر وكيد الخائنين والأشرار والأعداء والفجار، والبشرى للمؤمن أن الله لا يوفق أمثال هؤلاء في تدبيرهم، ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وإذا كان العبد مع الله في تقواه كان الله معه في أمر دنياه وكيد عداه، بل وأبعد من ذلك، يمدد الله عباده المتقين الصابرين بالملائكة لنصرتهم، حيث قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ويكفي أن يعلم المتقي فيما يحمل من حسن ظنّ بالله، وثقة بالله، وإيمان بكلام الله، أن العاقبة لأمثاله من المتقين سواء بالدنيا أو الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩].

وتذكر أن مدار ربحك في طريقك، والوصول إلى هدفك، والانتصار في معركتك، سواء مع شياطين الإنس أو الجن، وسواء على مستوى الفرد أو الجماعة؛ هو الصبر ثم الصبر ثم الصبر؛ فإن النصر مع الصبر.

فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو على المستوى الفردي مر في سلسلة من أمّر الابتلاءات، لكنها انتهت بأحلى النهايات، حيث النصر له على جميع المستويات، ليصف لنا كيف وصل لهذا النجاح العظيم ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فمن أهم طرق الفلاح والنجاح التقوى والصبر، فهما من عزم الأمور، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

و سواء كانت هذه العزائم هي عزائم الله التي أمر بها، أو عزائم الصواب التي وفق لها، فلزوم التقوى والصبر من جميع الوجوه خير للإنسان في جميع

حالاته، ودليل على سمو نفسه وغاياته، والصلابة في طريقه لهدفه وحزمه للوصول إليه، ومن كانت هذه صفاته لا بد له من تحقق هدفه ووصوله لغاياته.

الثاني عشر: حصول البركة

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

من يعي قيمة البركة في الشيء لا يتوانى عن الدعاء أن يبارك الله له في عمره ووقته وممتلكاته وكل ما يتصل به؛ لأن البركة: «ثبوت الخير الإلهي في الشيء»^(١). وسواء كانت البركة بثبوت الخير واستقراره أو بزيادة الخير واستمراره، فكله خير، وهل يوجد عاقل لا يريد الخير في أشياءه وخاصياته وكل ما يشمل ويتصل بحياته، من مال وولد وزوج وغيره حتى بعد مماته!

فقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخادمه أنس له بالبركة لأهميتها؛ حيث قال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(٢).

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (١/١١٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: قول الله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ} (رقم ٦٣٣٤) ومسلم في كتاب المساجد، باب: جواز الجماعة في النافلة (رقم ٦٦٠).

ودعا لأهل المدينة في صاعهم ومدهم بالبركة^(١).

ودعا لأحد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يبارك له بزوجه ودعا لأحدهما بالبركة لجودة عقله! وذكر ابن حجر - عند شرحه دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبركة لزوجين فاختلفت صيغة الدعاء مع أن المناسبة واحدة لصاحبيين، والمناسبة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك. ولجابر: بارك الله عليك - أن المراد بالأول اختصاصه بالبركة في زوجته، وبالثاني شمول البركة له في جودة عقله؛ حيث قدم مصلحة أخواته على حظ نفسه، فعدل لأجلهن عن تزوج البكر، مع كونها أرفع رتبة للمتزوج الشاب من الشيب غالباً^(٢).

ولأهمية البركة بالشيء أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن الإيمان والتقوى من أسباب البركة فيما ينزل من السماء من ماء، ويخرج من الأرض من نبات. فما أجمل التقوى! لم تستثن بركات خيراتها شيئاً من حياتنا الدنيوية والأخروية.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة (رقم ١٨٨٩) ومسلم في كتاب الحج، باب:

فضل المدينة (رقم ١٣٦٨).

(٢) فتح الباري (١١/١٩١).

الثالث عشر: حصول كرامة الله للمتقي

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَرَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

من فضل الله وحكمته أن جعل ميزان التفاضل بيد عبده أنفسهم، من باب العدل لتقوم الحجة عليهم، فلم يجعل مقياس التفاضل والكرامة بنسب أو عرق أو عشيرة أو مال أو منصب أو جاه وما إلى ذلك؛ لأن الناس في هذا درجات، خاصة الرزق، وسيتفاوتون لا محالة ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال الإمام الطبري: «وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضله بما أعطاه من المال والغنى، على هذا الفقير فيما حوَّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيد والقوة على هذا الضعيف الواهن القوي، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا؛ ليختبركم فيما حوَّلكم من فضله ومنحكم من رزقه فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه والعاصي؛ ومن المؤدِّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه والمفرط في أدائه»^(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/٢٨٨-٢٨٩).

لذا من كمال السعادة والطمأنينة وعلو الهمة للعبد أن جعل الله مقياس الكرامة عند الله بغير هذا، لأن بعضه ليس بيد العبد كالنسب مثلاً، لكن جعله بيد العبد نفسه، ألا وهو تقوى الله.

وقد قال الشاعر:

إذا انتسبَ الناسُ كان التُّقى بتقواه أفضل من ينتسب
ومن يتق الله يكسب به من الحظ أفضل ما يُكتسب
ومن يتخذ سبباً للنجاة فإن تُقى الله خير السبب

فعبيد الله في هذا يتساوون ولا يتفاوتون، ليكون هذا الميزان الحقيقي في التفاضل بين الناس، فلا فرق بين عربي وأعجمي، ولا عبد وحر، ولا ملك وخادم، ولا أبيض وأسود، ولا غني وفقير، ولا معافي ومريض، لا تفاضل في كل ذلك إلا بالتقوى، قال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «التَّقْوَى هَاهُنَا» يشير إلى صدره ثلاث مرات^(١).

وفيه إشارة إلى أن كَرَمَ الخلق عند الله بالتقوى، فَرُبَّ من يحقره الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا، وهو أعظم قدرًا عند الله تعالى ممن له قدر في

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (رقم ٢٤٤٢) ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم (رقم ٢٥٦٤).

الدنيا، فإنما الناس يتفاوتون بحسب التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾^(١).

الرابع عشر: حياة القلب بالأعمال القلبية وأثارها العظيمة

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

فالتقوى تورث تعظيم الله حتى يكون العبد مع ربه بين خوف ورجاء، وتعظيم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يكون العبد مع رسوله بين ومحبة واقتداء وخشية مخالفته. وليعلم أن من نتائج التقوى الصدق والتصديق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]^(٢).

ومن كانت هذه حالته مع الله ورسوله كان تعظيمه لما يتصل بهما من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمِ شَعْبَرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢] فعظم المحسوس والمادي والمعنوي من شعائر الله بسبب تقواه، فكانت التقوى له هي الصلة الحقيقية بينه وبين ربه، فلا تصل عباداته الجسدية بذاتها، ولا تعظيمه لشعائر الله بنفسها، بل بمعانيها الروحية مجموعة بالتقوى، لتكون هي التي تصل لربه فتنتفعه.

(١) جامع العلوم والحكم، (٢/ ٢٧٥).

(٢) فوائد التقوى، ٢٥.

وعبدُ هذا حال قلبه مع ربه، حيٌّ بإيمانه وتقواه بدربه، لا تستطيع أسباب الشيطان غلبه، يتذكر أمر الله ونهيه، ويهتدي لطاعة الله ويتقيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الخامس عشر: وصية الله ورسوله، بل وصية الرسل للعباد

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١].

وقال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ»^(١).

ولاشك أنك تعلم جيداً أن أخشى الناس عليك أحب الناس إليك، بل لا يوجد ممن تعاشهم أكثر شفقة عليك من أمك وأبيك، فإرشادهما إليك غالباً ما تغطيه الشفقة عليك فيما يكون فيه مصلحة لك، لذلك تجد أن وصيتهما إليك في حياتهما وبعد مماتهما تكسوها القدسية والحكمة والإجلال عندك، لأن الوصية خرجت ممن علا مقامهما في قلبك.

فكيف إذا كان من يوصيك هو ذو الجلال والإكرام الله **جَلَّ جَلَالُهُ** وقدوتك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (رقم ٣٤٤٥) وقال: حديث حسن. والنسائي في السنن الكبرى (١٨٨/٩) رقم ١٠٢٦٦ وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب: فضل الحرس والتكبير في سبيل الله (رقم ٢٧٧١) وأحمد (رقم ٨٣١٠) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (رقم ٣٤٤٥).

لماذا التقوى؟!

ونبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل الرسل من قبله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثم من في خير القرون من الصحابة، رضوان الله عليهم، ومن تبعهم من التابعين، حتى أصبحت الوصية بالتقوى وصية ورثة الأنبياء العلماء للناس، لتكون التقوى هي وصية الأولين والآخرين الأولى^(١).

فأوصيك ونفسي بتقوى الله بالسر والعلن، جعلنا الله من المتقين.

(١) فائدة: للشيخ د. عمر الأشقر في كتابه التقوى، نماذج لوصايا الأولين والآخرين بعد مستويات، فينظر في المبحث السابع: مدى عناية الإسلام والمسلمين بالتقوى. ٦٥-٥٣.

لماذا التقوى باختصار؟!

إذا نستطيع أن نجيب بشكل مجمل حول «لماذا التقوى؟» فنقول:

أرادك الله أن تتقيه من أجلك، نعم، من أجلك وحدك، لكي يحبك، وإذا أحبك أدخلك جنته بالسما، ووضع لك القبول بالأرض، وهياً لك طريق طاعته ومرضاته، وكان معك بتسديدك وإعانتك وتوفيقك ورعايتك، فعسرك يُيسره، وهمك يُفرجه، وغمك يُزيله، وحاجتك يُلبها.

باختصار: جعلك تتقيه في الرخاء ليعرفك بالشدة، وكيد أعدائك يرده، وعدوانهم عليك يصدّه. أحيا قلبك بنفض الأعمال القلبية لتعيش الطمأنينة والسعادة الروحية والشجاعة والعزيمة والقوة الإيمانية، فلا تخشى إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تراقب إلا الله، ولا تحتاج إلا الله.

بإيجاز: أخرجك من رق العباد والشهوات لرب العباد والبريات، لتعيش مسلماً عزيزاً، ومؤمناً صادقاً، لم يكبلك أو يقيدك في طريقك إلى الله وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر خجلك من الناس ومعروفهم عليك! فالناس أمامك سواسية في أمر الله على ضوء شريعة الله.

لماذا التقوى؟!

أرادك الله أن تتقيه لأسباب كثيرة، كما مر، لكن نستطيع أن نقول هنا: ليحفظك ويعزك ويسعدك بالدارين، فاحرص على أن تعمل بوصية نبينا **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** «**اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»^(١) ما دمت في زمن الإمهال وفتح المجال. فتزود من التقوى، **كما قال الشاعر:**

تزود من التقوى فإنك لا تدري	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً	وقد نُسِجَتْ أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها	وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم	وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة	وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر، باب: ما جاء في معاشره الناس (رقم ١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (رقم ١٣٧٣).

البحث الثالث

نموذجان لأثر التقوى في المحن والشدائد

تمهيد:

مشاعر الإنسان، وطباعه الحقيقية، ومعاني الخير، وخلق الأصيل، ومبادئه المتجذرة، تخرج بالشدائد وتتضح بالعسر، وأصعبها حينما يكون الصراع الحقيقي بين العاطفة والعقل، كما في أمر العشق والحب في عالم الأخلاء، لأن الحب هنا خمرة النفوس وسكرة العقول.

فالحب يُعمي ويُصم، وكثيراً ما يطغى على العقل، فمن ينتصر على عقله في مثل هذه المواطن من أجل قيمة ما فهذا دليل توفيق الله له، ومتانة عقله، ونفاذ بصيرته، وقوة مبدئه، فهو بمثابة من ضحى بنور بصره للبقاء على نور بصيرته، ومن ضحى بهواجس تفكيره ولبه من أجل سلامة عقله وطهارة قلبه.

فالأمر شديد جداً ومؤلم حقاً، فهنا تُصهر بالنار ليظهر ذهب معدنك، ولا تستطيع فعل ذلك وتصبر عليه إلا بتوفيق الله لك، ومعرفتك به في الرخاء

لماذا التقوى؟!

ليعرفك بالشدة، وفي مثل هذه الحالات يظهر معنى من معاني التقوى وأثر من آثارها، حيث يترك الإنسان ما يحب ويعشق ويهوى من أجل قيمة أعلى وأعلى هي التقوى.

لذا سأضيف بعض النماذج مع التعليق عليها، من الكتاب والسنة، لمن تغلب تقواه على قرينه وهواه، مع العلم أن النماذج كثيرة في مواضيع عدة، بل ونماذج معاصرة، لكنني اكتفيت بموضوع واحد؛ أثر التقوى فيه.

القصة الأولى

مَعَاذَ اللَّهِ!

النص:

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُبُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ، قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ، قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ، قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ، مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التعليق:

محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أصبحت منحة، من القصص القرآنية

العظيمة التي سنأخذ منها لمحة، وكل ما في القرآن الكريم عظيم، حيث بدأت سلسلة من الابتلاءات ليوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الكريم ابن الكريم، من رمي إخوته له بالجيب، وفراقه عن والده، ثم بيعه بثمن بخس كعبد، ثم فتنته مع امرأة العزيز لفعل الفاحشة، وأخيراً سجنه ظلماً.

ولك أن تتخيل كم الألم والعذاب والظلم والهوان الذي عاشه هذا الكريم العفيف العظيم الشريف، ليصل بالنهاية بعد هذه المحن للمحن الربانية بين المُلْك والاجتماع من جديد مع أبيه وإخوته.

لو تأملنا إحدى هذه الفتن التي مرت به، لنرى كيف صعوبة المواقف التي عايشها، وحجم تقواه وصبره، وتوفيق الله له الذي حماه من شر هذه الفتن، لرأينا أبهى صورة خُلق للصبر على المعصية، تشبه تماماً جمال وهاء صورة خُلق يوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.

فعلى سبيل المثال نأخذ من الفتن قصة مراودة امرأة العزيز له ورفضه اختياراً لا اضطراراً.

قال السعدي: «هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصبره صبر

اضطراره، بمنزلة الأمراض والمكروه التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر^(١).

هذا الموقف لا بد من تدبره جيداً وتصوره، فالرفض قمة العظمة لمن هذا حاله، حيث كان عَلَيْهِ الصَّلَامُ حينها عبداً، والتي راودته ليوافقها سيدته، فقد يجد مبرراً لنفسه بطاعتها من هذا المنطلق، والنفس أمارة بالسوء، وقد كان غريباً، فلا يخاف الفضيحة مثل ابن البلد والمقيم بالوطن، وكان شاباً، وداعي الشهوة عنده أكبر، وزد على ذلك عزباً بلا زوجة، وداعي الشهوة أكبر وأكبر للاستجابة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يدخل البيت ويخرج، فالشك عن مثله بعيد، وقد جاءت المرادة من قبل المرأة؛ سيدته، وهي من يُريد، وفوق هذا فهي ملكة نفوذها واسع، فلا تخطو خطوة إلا ودرستها لكي لا تفتضح، فأمره مأمون

(١) تفسير السعدي (ص ٣٩٦).

معها لو حصل ما حصل، بل والقرائن لذلك واضحة؛ وتغليقها للأبواب بابًا إثر باب. ومع هذا الجو الآمن تعرض هذه الجميلة عليه نفسها بقولها: هيت لك، تعال واقترّب، فهي من تناديه وتشجعه على فعل ذلك.

ومع كل هذا في حالة رفضه لها سيعرض نفسه للخطر معها، فأقل القليل أن تهدده بالسجن، أو تكيد له، أو تعذبه لرفضه، وهذا وحده يكفي أن يكون عند البعض تبريرًا لفعل هذا الأمر الشنيع بحجة أنه مكره على ذلك!

ومع كل هذه الأسباب والأجواء رفض هذه الفعل الظالم، ليعلنها مدوية حتى لو أصابه أي مكروه في سبيل الله ثم عفته وشرفه ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ليحفظ بهذا الظرف العصيب حق الخالق والخلق والنفس.

«وهذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد».

فقوله ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل. وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي فيقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة.

وأيضًا صون النفس عن الضرر واجب، وهذه لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها، وقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب^(١).

«والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين..»^(٢).

الشاهد من القصة:

أن تقواه أنجاه، فلم يستجب لمن أغواه، ولم يطع أمر هواه، فخاف الله في سماه، وصبر على بلواه، فأنجاه الله بسبب تقواه. وليعلم معشر المتقين أنهم لا محالة بين فتنة وابتلاء، فليتقوا الله

(١) تفسير الرازي (١٨/٩٢).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣٩٦).

لماذا التقوى؟!

ويصبروا، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعطي هذه الوصفة الربانية أن الذي أنجاه من كل هذه المحن من خلال العلم والتجربة مجموع في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].



القصة الثانية

اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه!

النص:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَرَجَ ثَلَاثَةٌ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ الْمَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ» قَالَ: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ.... وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَحَبُّ امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّي، كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ. فَقَالَتْ: لَا تَنَالْ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِئَةَ دِينَارٍ. فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا^(١). فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا^(٢) قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ^(٣) إِلَّا بِحَقِّهِ^(٤).

- (١) وسبب اجابتها بعد امتناعها تبينه رواية أخرى، حيث قال: فامتعت مني حتى ألمات بها سنة (أي قحط) فجاءتني فأعطيتها. ويجمع بينهما أنها امتعت أولاً عفة، ودافعت بطلب المال، فلما احتاجت أجابت قوله (فتح الباري لابن حجر ٥٠٩/٦).
- (٢) أي كما يكون بين الرجل وزوجته. وهو مجلس الرجل من المرأة هنا.
- (٣) أي لا تكسر. والخاتم كناية عن عذرتها، وكأنها كانت بكرًا. وكنت عن الإفضاء بالكسر، وعن الفرج بالخاتم (فتح الباري ٥٠٩/٦).
- (٤) وحقه قصدت به الحلال، أي بالنكاح لا الفاحشة والسفاح.

فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً»
قَالَ: «فَفَرَجَ عَنْهُمْ الثُّلُثِينَ...» إلى آخر الحديث^(١).

التعليق:

تُبين هذه القصة أثر الحاجة والفقر على المرأة خصوصاً والمجتمع عموماً، وأن أثره عليها شديد بحاله، فكيف إذا كان معه ما يؤججه ويضغط على أثره من دوافع أخرى وحاجات، تختلف أهميتها من امرأة لأخرى، كتوفير لقمة العيش لأولادها من الأم، أو حصول المال للعلاج عند الشابة لها أو لمن تحب كأحد والديها! ومعلوم أن في هذا الزمن لقصر في عقل بعض الشابات، وتضليل من الإعلام في زمن الماديات، تجدها قد تستجيب للإغواء للحصول على المال لتوفير ما يجعلها تصل لمستوى أقرانها، أو لتحقيق رغبات ترفيهية معينة وما إلى ذلك، وكل ما مضى مما قد يجعل المرأة تتنازل عن أثمن ما تملك لتملك!

وهذا ليس عذراً أو تبريراً لها، لكن بمثابة الوصف لبعض الحالات التي تقع في مثل هذا .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب: من استأجر أجييراً فترك أجره (رقم ٢٢٧٢) ومسلم في كتاب الرقاق، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة (رقم ٢٧٤٣).

وللأسف قد يدفع المجتمع نفسه بعض النساء لتهوين فعل ذلك، حينما يرفع من شأن الماديات على حساب الدين والأخلاقيات، لترسم في عقلية المرأة أن شأن الماديات من الأولويات، فيقل إحساسها في دينها وأخلاقياتها، كالعفة مثلاً، إذا قارنته فيما يخص الحاجة والمادة.

لذا لا بد من رفع وعي المجتمع، بما يحويه من الجنسين، بحقيقة الدنيا وأحوالها، وواجبات الدين وأولوياته، وقيمة العفة وأهميتها، وإغاثة الملهوف وفائدتها، ومعنى الإيمان وزيادته، وغرس التقوى في القلب. ولا بد من الحلول الموافقة للشريعة في معالجة الفقر وحاجات الناس.

فعلى سبيل المثال في القصة المستشهد بها: فقد فعلت المرأة ما فعلت بسبب ضغط حاجتها، ولذلك قرائن حقيقية لا وهمية وتبريرية، فقبل الواقعة رفضت، ثم ألمت بها حاجتها فرجعت ورفضت، ثم ترددت عليه لعل وعسى ثلاث مرات، ثم استجابت، وعند الواقعة انتفضت وارتعدت، خافت وبكت، حتى تكلمت ووضحت، بل ووعظت!

وقد ذكر ابن حجر في شرحه أنه: «وقع في حديث علي: فقالت: أذكرك الله أن تركب مني ما حرم الله عليك. قال: فقلت: أنا أحق أن أخاف ربي. وفي حديث النعمان بن بشير: فلما أمكنتني من نفسها بكت، فقلت: ما يبكيك؟ قالت:

فعلت هذا من الحاجة. فقال: انطلقني. وفي رواية أخرى عن النعمان أنها ترددت إليه ثلاث مرات تطلب منه شيئاً من معرفه، ويأبى عليها إلا أن تمكنه من نفسها فأجابت في الثالثة... فرجعت فناشدتني بالله، فأبيت عليها، فأسلمت إليّ نفسها، فلما كشفتها ارتعدت من تحتي، فقلت: ما لك! قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء! فتركها. وفي حديث ابن أبي أوفى: فلما جلستُ منها مجلس الرجل من المرأة أذكرت النار فقامت عنها. والجمع بين هذه الروايات ممكن والحديث يفسر بعضه بعضاً^(١).

وإن أحرار الرجال تأبى أنفسهم، وتردهم مروءاتهم لاستغلال ضعف خصومهم وحاجتهم إذا نخوهم، فكيف إذا كان من عامة الناس! بل ممن جُبل على الضعف؛ النساء! والأدهى إذا كانت أيضاً قريبتة من النساء! حيث الحمية والغيرة والأنفة تأبى المساومة! وأيُّ مساومة؟ مساومة على الشرف والعرض! فأبي شرف يبقى للرجل بعد هذا!

لكن بعض الرجال قد يزل حينما ترتفع شهوته وينقص إيمانه، فتتخفف نفسه للأخلاق والشهوة البهيمية بلا مراعاة للقيم والمشاعر الإنسانية ليمارس الخطأ، لكن يتدارك خطأه قبل وقوعه، حيث صحيحة

(١) فتح الباري (٦/٥٠٩).

التقوى تعلق في أعماقه فتردعه عن مواصلة زلته، أو الوقوع بنهاية ما بدأه، وبالقصة المستشهد بها مثال لذلك، حيث انتهى الرجل عن فعل ذلك.

ومن الفوائد بهذا الحديث «فيه فضل العفة والإنكفاف عن الحرام مع القدرة، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجب ما قبلها»^(١).

وفي قوله (فقيمت عنها): فيه أن من هم بمعصية فتركها لله تعالى، وإن كان قد عزم عليها ووطن نفسه على فعلها، فإن ذلك يصير من تركه ونزوعه طاعة، وهي توبة حقيقة عنها، بدليل قوله في الحديث الآخر: «فاكتبوها حسنة، لأنه إنما تركها من أجلي...»^(٢).

(١) المرجع السابق (٦/٥١٠).

(٢) إكمال المعلم (٨/١١٥).

المراجع والمصادر

- * القرآن الكريم.
- * تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (المتوفى: ٣٢٧هـ) المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، الطبعة الثالثة - ١٤١٩.
- * تفسير الفاتحة والبقرة، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- * تفسير الحجرات - الحديد المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- * تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

- * جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- * الدر المنثور في التفسير بالماثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر - مصر، ١٤٢٤هـ.
- * مفاتيح الغيب، الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- * صحيح البخاري.
- * صحيح مسلم.
- * سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥) مذيلة بأحكام

الألباني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

* الإيمان لابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، ت ٢٣٥ هـ.

* إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، المؤلف: العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ (أسطوانة المكتبة الشاملة).

* فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

* مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥) تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم/ دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٣٣.

* جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم،

المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن،
السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) المحقق:
شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت،
الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

- * التقوى، أ.د عمر الأشقر، دار النفائس / الأردن، الطبعة الأولى ١٤٣٣.
- * فوائد التقوى من القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨.
- * سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
الذهبي، المحقق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط
الناشر: مؤسسة الرسالة.



فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	المبحث الأول: تعريف التقوى
١٠	المبحث الثاني: لماذا التقوى؟!
١١	* أولاً: محبة الله للمتقين
١٤	* ثانياً: تكفير السيئات بل ومضاعفة الرحمة والهداية والمغفرة
١٨	* ثالثاً: جزاؤهم الجنة
٢١	* رابعاً: حصول المتقي على الفلاح
٢٢	* خامساً: معية الله للمتقين
٢٤	* سادساً: تفريغ هموم وكروب المتقين ورزقهم
٢٦	* سابعاً: تيسير أمور المتقين
٢٩	* ثامناً: الولاية للمتقين، والبشرى لهم بالدنيا والآخرة
٣٢	* تاسعاً: تحقق شكر الله
٣٥	* عاشراً: وسيلة للعلم النافع وزيادته
٣٦	* الحادي عشر: من أسباب منع الاعتداء، ورد كيد الأعداء
٣٨	* الثاني عشر: من أسباب البركة:

رقم الصفحة

الموضوع

- ٤٠ * الثالث عشر: حصول كرامة الله للمتقي
- ٤٢ * الرابع عشر: حياة القلب بالأعمال القلبية وآثارها العظيمة
- ٤٣ * الخامس عشر: وصية الله ورسوله - بل والرسول - للعباد
- ٤٥ لماذا التقوى باختصار؟!
- ٤٧ المبحث الثالث: نموذجان لأثر التقوى في المحن والشدائد
- ٤٩ * القصة الأولى: مَعَاذَ اللَّهِ!
- ٥٥ * القصة الثانية: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه!
- ٦٠ المراجع والمصادر
- ٦٤ فهرس الموضوعات